الرؤية الإسلامية في شعر حسان بن ثابت الأنصاري

د. عبد الرحيم الرحموني

إن أهم ما يثير انتباه الدارس وهو يتناول شعر الدعوة الإسلامية في عهد الرسول ﷺ بالدرس والتحليل هو مدى تأثر شعراء الدعوة بالإسلام، وتعبيرهم عن المبادىء الإسلامية في صورة رؤية واضحة للكون والفرد والمجتمع.

والمتتبع لشعر شعراء الدعوة الإسلامية الثلاثة وغيرهم من الشعراء، يدرك أن شعرهم يتفاوت من حيث التأثر بالإسلام ومبادئه، ولعل هذا التفاوت يلاحظ من خلال المعاني البارزة والمضمون العام لأشعارهم. مما جعل صاحب الأغاني يقول: «فكان يهجوهم ثلاثة من الأنصار: حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبدالله بن رواحة. فكان حسان وكعب يعارضانهم بمثل قولهم بالوقائع والأيام والمآثر ويعيرانهم بالمثالب، وكان عبدالله بن رواحة يعيرهم بالكفر. قال: فكان في ذلك الزمان أشد القول عليهم قول حسان وكعب وأهون القول عليهم قول ابن رواحة، فلما أسلموا وفقهوا الإسلام كان أشد القول عليهم قول ابن رواحة»(١).

ورُبّما فُهِم من قول الأصفهاني هذا بصورة عامة أن حسان بن ثابت لم يتأثر بالإسلام تأثراً كبيراً، لأنه سارَ في شعره سيراً جاهلياً، خاصة وأن بعض الدارسين قد جعلوه بعيداً عن كل تأثر بالإسلام، وحتى أن بعضهم أفرد دراسات خاصة بحسان، أو عن تأثر المخضرمين بالإسلام، فإن دراساتهم تلك تقتصر على الإشارة إلى تأثر حسان بن ثابت ببعض معاني القرآن الكريم أو ألفاظه وأساليبه^(٢)، دون أن يتم التوضيح هل هذا التأثر ناتج عن رؤية إسلامية للحدث، أم أنه لايعْدُ وأَنْ يكون تأثراً ببلاغة القرآن وبيانه، لأن هناك من الشعراء من تأثر بالقرآن الكريم دون أن تكون لديه رؤية إسلامية لما يعبر عنه، بل هناك من لم يكن مسلماً أصلاً كالأخطل.

ونحن إذا ما تتبعنا رؤية حسان الإسلامية من خلال شعره، فإنه يمكن تصنيفها في جوانب متعددة تترجم هذه الرؤية، كما تبين في الوقت ذاته تأثر حسان بالإسلام تأثراً إيمانياً لا تأثراً بلاغياً فحسب. ومن هذه الجوانب:

١ ـ شمائل الرسول ﷺ وفضله في نشر الدعوة الإسلامية:

لقد امتدح الله تعالى خلق الرسول ﷺ، بقوله عز وجل «وإنك لَعَلَى خلق عظيم»(٣)، ولقد سئلت عائشة رضي الله عنها عن خلق الرسول ﷺ، فقالت: «كان خلقه القرآن»(٤). ومن خلق الرسول الكريم صلوات الله عليه ما ورد في قوله تعالى: «لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم، حريص عليكم، بالمؤمنين لرءوف رحيم»(٥). إنّه خلق الحرص على هداية أمته والرحمة بهم، ولقد اقتبس حسان هذه الأوصاف الخلقية ووظفها في شعره في مقام جد مناسب، وهو مقام رثائه ﷺ، فقال:

عفو عن الزلات يقبل عذرهم   وإن يحسنوا فالله بالخير أجود...
عزيز عليه أن يحيدوا عن الْهُدَى   حريص على أن يستقيموا ويهتدوا
عطوف عليهم لا يثني جَنَاحه   إلى كَنَفٍ يحنو عليهم ويَمْهد(٦)

فَفَقْدُ الرسول ﷺ هو فقدٌ لهذه الخصال والشمائل، ومن ثم فإن وجود الرسول الكريم بين ظهران أصحابه يكسبهم عزة ومنعة، تبدوان أساساً في الاتصال بالسماء عن طريق الوحي، الذي طالما كشف خبايا وحقائق مغيبة دلت على صدقه ﷺ. يقول حسان:

نبي يرى ما لا يرى الناس حوله   ويتْلُو كتابَ الله في كل مسجدِ

وإن قال في يوم مقالة غائب   فتصديقها في اليوم أو في ضحى الغد(٧)

ومعلوم أن ما ذهب إليه حسان لا يتناقض مع قول الله تعالى «ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير»(٨). فلقد أُخْبِرَ الرسول ﷺ بمكر اليهود حينما أَرَدوا إلقاء الصخرة عليه قصد قتله(٩). كما أخبر عليه الصلاة والسلام بما فعله ابن أبيرق حينما سرق درعين وطرحها في منزل يهودي حتى يبرأ منهما ويؤخذ بهما اليهودي، (١٠) وفي ذلك يقول حسان:

ظننتم بأَنْ يَخْفَى الَّذِي قد صنعتُمُ   وفينَا نبيٌّ عنْدَه الوحْيُ واضِعُهْ(١١)

ومن الخبايا التي أخبر بها الوحي ما قاله حسان للحارث بن سويد بن الصامت الأنصاري، وكان الجذر بن زياد البلوي وعِدَادُه في الأنصار، قتل سويدا في حرب بعاث فاغتاله الحارث بن سويد يوم أحد، فقتله يوم انهزم المسلمون، قتله بأبيه وهو مسلم ثم لحق بمكة وكتب إلى أخيه جلاس بن سويد يستأمن له النبي ﷺ. فأَنْزَلَ الله جبريل يأمره بقتله، فضربَ عنقه ﷺ، فقال حسان في ذلك:

يا حَارِ في سِنَةٍ من نَوْم أَوَّلِكُمْ   أمْ كُنْتَ ويْحَكَ مغتراً بجبريلِ
أمِ كنْتَ يا بن زيادٍ حين تقْتُلُهُ   بِغِرَّةٍ في فَضَاءِ الأرْضِ مَجْهُولِ
وقُلتُم لَنْ نُرَى والله مُبْصِرُكم   وفيكمُ مُحْكَمُ الآياتِ والقيلِ
محمد والعزيزُ اللهُ يُخْبِرُهُ   بِمَا تُكِنُّ سريراتُ الأقَاوِيلِ(١٢)

وبالإضافة إلى ما سبق فلقد اشتملت مدائح حسان للرسول ﷺ على معاني إسلامية رائعة تبين فضله ﷺ وشمائله، وبعثته التي كانت بعد فترة من الرسل، ودوره عليه السلام في إنقاذ البشرية، من ذلك قوله:

أغَرّ عليه للنبوَّةِ خَاتَمٌ   من اللهِ مشهودٌ يَلُوحُ ويَشْهَدُ
وضم الإله اسم النبي إلى اسْمِه   إذا قَالَ في الخَمْسِ المؤذِّنُ أَشْهَدُ
وشَقَّ له من اسْمِه ليُجِلَّهُ   فَذُو الْعَرْشِ مَحْمُودٌ وهذا مُحَمَّدُ
نَبِيٌّ أتانا بَعْدَ يأسٍ وفتْرةٍ   منَ الرُّسْلِ والأوثانُ في الأَرْضِ تُعْبَدُ
فأَمْسَى سراجاً مستنيراً وهَادِياً   يَلُوحُ كما لاَحَ الصُّقِيلُ المُهَنَّدُ
وأَنْذَرَنَا ناراً وبَشَّرَ جَنَّةً   وعلَّمَنَا الإسْلاَمَ فالله نَحْمَدُ...(١٣)

وإذا كانت الدعوة إلى الله من الأمور التي أَمَرَ بها الإسلامُ واعتبرَها من أحسن الأقوالِ عَلَى

الإطلاق، فإن حسان لم يتردّد في تحسين شعرهِ بمعاني الدعوة إلى الله في مدحِهِ للرسول ﷺ كقوله:

متكرِّماً يدعو إلى رَبِّ العُلَى بَذْلَ النصيحةِ رافِعَ الأعْمَادِ
مِثْلَ الهِلَالِ مباركاً ذَا رحمةٍ سَمْحَ الخليقةِ طَيِّبَ الأعْوَادِ(١٤)

أوْ كقَوله في رثائه عليه الصلاة والسلام:

يَدُلُّ عَلَى الرحمٰن من يقتدِي بِهِ ويُنْقِذُ من هَوْل الخزايَا ويُرْشِدُ
إمامٌ لَهُم يَهْدِيهم الحق جاهِداً معلِّم صِدْقٍ إن يُطيعوهُ يَسْعَدُوا(١٥)

بَلْ إن الدعوة إلى الله قد وردت على لسان حسان مباشرة كما يبدو في قولِهِ مخاطباً وفد بني تميم:

فلا تجعلُوا لله نِداً وأَسْلِمُوا ولا تلبسوا زيًّا كزيِّ الأعَاجِمِ(١٦)

٢ ـ التعبير عن أحداث الإسلام:

وهو الجانب الأهم في شعر حسان الإسلامي، ولن نكون مبالغين إذَا قلنا بأَنَّ شعر الغزوات الإسلامية يعتبر تسجيلاً لأحداث هذه الغزوات، وتمثيلاً لانطباعات المسلمين وفي مقدمتهم شعراؤهم. ولذلك فليس من العجب أن يفردَ ابن هشام في سيرته فصولاً خاصة بالشعر الذي قيل عقب تلك الأحداث. ويُمْكن أن نَقُولَ بأن شاعرنَا حسان بن ثابت يعتبر أول مصور لهذه الأحداث وأول مدافع عن المسلمين فيها، بشهادة الرسول ﷺ الذي شهد له بالتفوق في أكثر من حكم، من ذلك قوله عليه الصلاة والسلام «كأنك تنضحهم بالنبل»(١٧).

وإذا كان حسان بن ثابت أول مصور للأحداث الإسلامية، فإنه ليس من الغريب أن يصدر في كثير من تصوراته ـ إن لم نقل في كلها ـ من منطلقات إسلامية، سواء من حيث الرؤية للحدث، أو من حيث اقتباسه للمعاني القرآنية، من ذلك اعتباره ما قام به المسلمون في سبيل نصرة الإسلام جهاداً في سبيل الله، كما يبدو في قوله:

وجاهدوا في سبيل الله واعترفوا للنائبات فما خامُوا وَمَا ضَجرُوا(١٨)

ومن ذلك تصويره للحدث البارز الذي أيّد الله فيه المسلمين بالملائكة في غزوة بدر الكبرى، وهو تصوير لا ينطلق إلا عن إيمان ويقين بالقضية، حيث يقول:

ويوْمَ بدر لقيناكم لَنَا مددٌ فيرفع النّصر ميكال وجبريل(١٩)

ونظير ذلك ما نجده في قوله وهو يصف هزيمة الأحزاب:

حتّى إذا وردوا المدينة وارتجوا   قَتْلَ النبيِّ ومغنم الأسْلاَبِ
وغدَوْا علينا قادِرين بأيد هم   رُدُّوا بغيظهم عَلَى الأعقابِ
بهبوب معصِفة تفرق جَمْعهم   وجنود ربك سيِّد الأربابِ
وكَفَى الإلَهُ المؤمنين قِتَالهم   وأثابَهُم في الأجْرِ خير ثوابِ(٢٠)

وواضح من خلال هذه الأبيات، أن حسان قد اقتبس جانباً من قوله تعالى:

«ورد الله الذين كَفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً»(٢١) في قوله «رُدُّوا بغيطهم عَلَى الأعقاب» ومن قوله تعالى «يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنودٌ فأرسَلْنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها»(٢٢) . في قوله «بهبوب معصفة...» ومن قوله تعالى: «وكفى الله المؤمنين القتال»(٢٣) في قوله: «وكفى الإله المؤمنين قتالهم».

ولعل الذي يثير الانتباه من خلال الأبيات السالفة ليس هو تأثر حسان بالقرآن الكريم فحسب، ولكن تبنيه للتفسير الإسلامي المعتمد على حقائق غيبية لهزيمة الأحزاب.

• • •

وإذا كان حسان قد اقتبس معاني كثير من الآيات القرآنية في كثير من أشعاره، فإنه قد أشار أيضاً إلى بعض أحاديث الرسول ﷺ وأقواله، من ذلك مقالته ﷺ لأهل القليب: «يأهل القليب، هل وجدتم ماوعدكم ربكم حقاً؟ فإني قد وجدت ما وعدني ربّي حقًّا»(٢٤)، التي نجد لها أثراً واضحاً في قول حسان:

يناديهم رسولُ الله لمَّا   قذفناهم كباكبَ في القليب
ألَمْ تجدُوا حديثي كَان حَقاً   وأمْرُ الله يأخذُ بالقلوبِ
فما نَطَقُوا ولو نطقوا لَقَالُوا   صدقت وكنت ذَا رأْيٍ مصيبِ(٢٥)

ولقد كان هدف حسان وَاضحاً من خلالِ هذا الاقتباس، والذي يتجلى في أخذ العبرة من الحدث ومن المقالة وإذاعتها بقول طالما سارت به الركبان.

ثم إن حسان لم يقتصر على تصوير الأحداث الدنيوية، بل تجاوزها إلى وصفِ مصيرِ المسلمين ومصير المشركين يوم القيامة، من ذلك قوله في غزوة أحد:

فإنْ تذكروا قتلى وحمزة فيهم   قتيل ثوى لله وهو مطيع
فإنْ جنان الخلد منزله بِهَا   وأمْر الذي يقضي الأمور سريعُ
وقتلاكم في النَّارِ أفضل رزقِهم   حَمِيمٌ معاً في جوفِهَا وضَرِيعُ(٢٦)

٣ ـ هجاء حسان للمشركين:

لم يكن حسان يجو المشركين بأحسابهم وأنسابهم فحسب، كما ذهب إلى ذلك صاحب الأغاني، بل كان يعيرهم بالكفر والابتعاد عن الإيمان أيضاً، وربّما وظف ذلك أحسن توظيف، كقوله يهجو المغيرة بن شعبة:

تركت الدينَ والإيمانَ جَهْلاً   غداة لقيت صاحبة النصيفِ
وراجَعْتَ الصِبَّا وذكرت لهواً   من الاحْشاء والخِصْرِ اللَّطِيفِ(٢٧)

ومثل ذلك أيضاً ما يبدو في قوله ردًّا على أبي بن خلف الذي جاء بعظم إلى الرسول ﷺ، وقال له: تزعم أن ربك يحيي الموتى، فمن يحيي هذا؟ وَفَتَّ العظم،(٢٨) فقال حسان:

لقد ورث الضلالة عن أبيه   أبَيٌّ يوم فارقه الرسول
أجِئْتَ محمّداً عظْماً رَميماً   لتُكْذِبَهْ وأنْتَ بِهِ جَهُولُ(٢٩)

كما أن حسان صَدَر عن رؤية إسلامية واضحة نحو اليهود الذين كانوا يعرفون أن الرسول ﷺ مرسل من عند الله تعالى، ومع ذلك كانوا ينكرون نبوته ويحاربونَهُ، وذلك في رَدّهِ على جبل بن جوال الذي كان يهودياً:

هم أوتوا الكتابَ فضيعُوهُ   فهم عُمْيٌ من التوراة بُورُ
كفرتم بالقران وقد أوتيتم   بتصديق الذي قَالَ النذِيرُ(٣٠)

وَنَفس التصور كان ينظر به حسان إلى قريش، إذ كان يرى أنها ضالة مُضِلّة وخاصة الزعماء منهم الذين جعلهم كالشياطين الذين يضلون الناس، قال يهجو أبا جهل:

لقد لعن الرحمن جَمْعاً يقودهم   دعي بني شَجْع لحربِ محمدِ
مشوم لعين كان قدماً مبغَّضاً   يُبَين فِيه اللؤمَ من كان يَهْتَدِي
فدلاهم في الغَيِّ حتى تهافتُوا   وَكَانَ مُضِلاً أمْره غيرَ مُرْشِدِ(٣١)

ورغم أن حسان كان يهجو المشركين بالمثالب والمآثِر، فإنه لم يكن فاحشاً في قوله، بل كَانَ يراعي في هجائع قواعد الخلق الإسلامي، طبقاً لتوجيه الرسول ﷺ في قوله له: «كأنك تنضحهم بالنبل»، فالنضح بالنبل هو الرشق رشقاً متفرقاً، فهو عليه الصلاة والسلام أمَرَه بأن يجرحهم جرحاً لا يبلغ الطعن البعيد الفاحش، وهذا أكرم الأدبِ في الهجاء(٣٢). ولقد ذكر حسان أكثر من مرة في شعره أنه لا يفحش في القول لأن الإسلامَ يمنعه من ذلك. كقوله في هجاء بني سهم وعمرو بن العاص وأمه:

لوْلاَ النبي وقول الحق مَغْضبة   لَمَا تَرَكْتُ لكُم أُنْثَى ولا ذَكَرا(٣٣)

وقوله كذلك في هجاء آل تميم:

يا آل تيم ألاَ يُنْهَى سُفيهكم   قبل القذافِ بقولٍ كالجَلاَمِيدِ
لولاَ الرسولُ فإني لست عاصِيَهُ   حتى يغيبني في الرمْسِ مَلْحُودِي
لقد رَميْتُ بِهَا شنعاء فاضِحَةً   يَظَلُّ منْهَا صحيح القوم كالمودِي
لكن سأصرِفُهَا جُهْدِي وأعدِلُهَا   عَنْكُم بِقَولٍ رَصينٍ غَيْرَ تهديد(٣٤)

لكن حسان ربما ثارت ثائرته في الهجاء، غير أنه حتى في هذا المقام، لم يكن مخالفاً لتوجيهات الإسلام ومبادئه، لأنه مظلوم يدافع عن نفسه وعن المسلمين، والجهر بالسوء بالنسبة للمظلوم شيء مشروع طبقاً لقوله تعالى: «لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم»(٣٥)، وهذا ما يبدو من قول حسان في هجاء بني رمضة من بني الديل:

قد كنْت لا أهوَى السِّبابَ فَسَبَّني   أحْلامُ طيْرٍ في جسومِ حَمِيرِ(٣٦)

وكذلك في قوله وهو يهجو بني سهم:

يا آل سهم فإنِّي قد نصحت لكم   لا أبْعَثَنَّ عَلَى الأحياء من قُبِرَا
ألا تَرَوْنَ بأني قَدْ ظُلِمْتُ إذَا   كان الزبَعْرَى لنَعْلَي ثابِتٍ خطَرا(٣٧)

٤ ـ نصرة الأنصار للرسول ﷺ:

لقد شكّل موضوع نصرة الأنصار للرسول ﷺ معنىً خِصْباً وموضوعاً ثرياً لشعر حسان بن ثابت، فكانَ بذلك يردِّدُ هذَا المعنَى في كثير من قصائده، من ذلك قوله جاعلاً من هذه النصرةِ فضلاً وتكريماً من الله تعالى، وسبْقاً إلى الخيْر وإلَى تطبيق أوامر الله والوقوف عند حدوده:

الله أكرمَنَا بِنَصْرِ نِبَيِّهِ   وبنا أقام دَعَائم الإسْلاَمِ
وبنَا أعَزَّ نَبيّهُ وكِتَابَهُ   وأعَزَّنا بالضربِ والاقْدَامِ...
ينتابنا جبريل في أبياتِنَا   بفرائِضِ الإسْلاَمِ والأحكامِ
يَتْلوا علينا النورَ فيها مُحكماً   قِسْماً لعمركَ لَيْسَ كالأقْسَامِ
فنكون أول مستحلٌ حَلاَلِه   ومحرِّم لله كُلَّ حَرامِ⁽³⁸⁾

وقد يربط حسان هذه النصرة بما كان عليه الرسول ﷺ قبل الهجرة حينما كان يدعو الناسَ فرادَى وجماعات فلا يستجيب له إلا القليل، وذلك حتى يبين فضل الأنصارِ في هذا المجالِ. فيقول:

ثَوَى في قريش بضع عشرة حِجَةَ   يذكّر لو يَلْقَى صديقا مؤاتيا
ويعرضُ في أهل المواسِم نَفْسَهُ   فلم يَرَ من يُؤْوِي وَلَمْ يَرَ داعيا
فلمَّا أتانَا واطْمأنت بِهِ النَّوَى   فأصبَحَ مسْرُوراً بطيبة راضِيا
وأصْبَح لا يَخْشَى عَدَاوة ظالِمٍ   قريبٍ ولا يَخْشَى من النَّاسِ بَاغِيا⁽³⁹⁾

بل إن حسان قد ربط بين نصرة الأنصارِ للرسول ﷺ وفضلهم في الجاهلية كما يبدو في قوله:

وكنّا ملوكَ الناس قبل مَحمّد   فَلَمَّا أتى الإسلامُ كان لنا الفَضْلُ⁽⁴⁰⁾

أو في قوله:

لَنَا الملك في الإشراك والسبق في الْهُدَى   ونَصْرُ النبيٍّ وابْتِنَاء المكارِمِ⁽⁴¹⁾

وَلَعَلَّه من المعلوم أن حسان، حتى في رَبْطِه هذا بين الفضل الجاهلي والسبق الإسلامي لم يكن مخالفاً لمبادىء الإسلام ورؤيته، لأن فخره بالماضي الجاهلي لم يكن على حساب الإسلام، بل كان فخراً على ماضي الآخرين الجاهلي، هذا فَضلاً عن أن الأمْرَ يمكن أن يوجّه ليكون مطابقاً لقول الرسول ﷺ «خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا»⁽⁴²⁾.

ولقد فقه حسان القضية أحسن فقه، فلم يكن فَخْرُهُ بالأنصارِ تحيزاً ولا تعصُّباً بل لأنَّهم آووا الرسُول الكريم ونصروه، كما أن حسان لم يفخر بالأنصار فقط، بل افتخر أيضاً بالمهاجرين باعتبارهم أخوة الأنصار في الدين، فكان مما قال في هذا الباب، قوله في ردّه على وفد بني تميم:

إن الذوائب من فهر وأخوتهم   قد بيَّنوا سنَّة للنَّاسِ تتبع⁽⁴³⁾

وقوله أيضاً في غزوة بدر:

بأيدي رجال هاجروا نحو ربّهم   وأنصارِهِ حقا وأيْدي الملائِكِ(٤٤)

ومن أدب حسان رضي الله عنه، كما يلاحظ في البيتين، أنه قدّم ذكر المهاجرين على الأنصار والنص على الأخوة التي عقدها بينهم الرسول ﷺ غداة الهجرة. ومن تمام أدبِهِ رضي الله عنه أنه جعل من نصرة الأنصار للنبي عليه السلام تكريماً من الله تعالى، لا من حيث مفهوم النصرة فحسب، ولكن في اللقب ذاته أيضاً، الذي صار علماً خاصاً بهذه الطائفة من المسلمين: قال:

سماهم الله أنصاراً لنصْرِهم   دين الهدى وَعوان الحربِ تَسْتَعِرُ(٤٥)

وقال أيضاً:

وأكرمَنَا الله الذي ليْسَ غَيْرُهُ   إله بأيامٍ مَضَتْ مَا لَهَا شَكْلُ
بِنَصْرِ الإلَهِ للنبِيِّ ودِينِهِ   وأكْرَمَنَا باسْمٍ مَضَى ما لَهُ مِثْلُ(٤٦)

٥ ـ حكم وموضوعات عامة:

وبالإضافة إلى ما سبق، فإن حسان قد تناول بعض الموضوعات العامة ذات الطابع الإسلامي أو الصادرة عنه، أو المعبرة عن تطبيق لمبدأ من مبادئه، فلقد تضمَّن شعرُهُ جانباً من الحكم والمواعظ كقوله:

أعرِضْ عن العَوراء إنِ أُسمِعْتَهَا   وأقْعُدْ كأنَّكَ غافِلٌ لا تَسْمَعُ
وَدَعِ السؤَالَ عن الأمُورِ وبَحْثَهَا   فلرُبَّ حافِرِ حُفْرَةٍ هو يُصْرَعُ
والزَمْ مجالسة الكِرَامِ وفِعْلَهم   وإذَا اتَّبعْتَ فأبْصِرْنَ من تَتْبَعُ
لا تتبَعَنَّ غوايةً لصَبَابَةٍ   إنَّ الغوايَةَ كُلُّ شَيء تَجْمَعُ...(٤٧)

وواضح أن هذه الأبيات تضمنت معاني إسلامية رائعة في الخلق والمعاملة، من بينها معاني قرآنية، كالتي نجدها في قوله تعالى: «ادفع بالتي هي أحسن السيئة فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم»(٤٨) وقوله عز وجل «يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم»(٤٩)، ومن بينها معاني حديثه كالتي وردت في قوله ﷺ: «أعظم المسلمين في المسلمين جرماً من سأل عن أمْرٍ لم يحرم، فحرِّم على المسلمين من أجْل مسألته»(٥٠)، وقوله عليه الصلة والسلام: «مثل الجليس

الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن يحذيك وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحاً طيبة ونافخ الكير أما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد منه ريحاً منتنة»(٥١).

ومن بليغ حكم حسان ما عبر عنه في تعريفه للأخ والخليل حيث جعل معيار التقى والدين أساس كل أخوة وخلة وأما ما عداها فهو مزيف، قال:

أخلاء الرخاء همُ كثير   ولكن في البلاء هُمُ قليلُ
فلا يغررك خُلَّة من تؤاخِي   فمالك عنْد نائبةٍ خَليلُ
وكُلُّ أخٍ يَقُول أنا وفِيٌّ   ولكن لَيس يَفْعَلُ مَا يَقُولُ
سِوَى خِلٍّ لَهُ حَسَبٌ وَدِيْن   فَذَاكَ لمَا يَقُول هو الفعُولُ(٥٢)

وإذا كان تطبيق القول بالعمل أساس الأخوة كما يبدو في قول حسان السابق فإنه أيضاً أساس كل معاملة أخرى، وهو من المبادىء الإسلامية الأساسية، التي تبدو خاصة في قوله تعالى «يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون»(٥٣). ولذلك ركَّز عليه حسان أكثر من مرة في شعره، من ذلك قوله عن نفسه:

فمَهْما يَكن منِّي فَلَسْت بِكاذِبٍ   ولسْتُ بخوانِ الأمِين المجامِلِ
وإنِّي إذا مَا قُلْت قولاً فَعَلْتُهُ   وأعْرِضُ عَمَّا لَيْسَ قَلْبِي بِفَاعِلِ(٥٤)

وقوله بلسان الجماعة:

فَنَحْنُ وُلاَةُ النَاسِ في كُلِّ موطِنٍ   مَتَى ما نَقُلْ في النَّاسِ قولاً نُصَدَّقِ(٥٥)

بل إن حسان، إدراكاً منه لهذه القيمة الإسلامية. قد رثي بها عمر بن الخطاب رضي الله عنه في قوله:

مَتَى مَا يقُل لا يكذب القول فِعْلُه   سريعٍ إلَى الخيراتِ غَيْرِ قطوبِ(٥٦)

ومن باب الحكم أيضاً ما ورد في شعره من إشارة إلى بعض الثنائيات المتناقضة، التي لا يمكن الجمع أو التسوية بينها، كالطاعة والعصيان في قوله:

وفَوْا إذ كفرتم يا سخين بِرَبِّكم   ولا يَسْتَوِي عبْد عَصَا ومُطيعُ(٥٧)

والهدى والضلالة في قوله:

وهـل يستوي ضلاَّل قوم تَسفَّهوا   عـمًى وهـداة يَهْتَـدُون بِمُهْتَـدِ(٥٨)

والصدق والكذب في قوله:

يا أيها الناس أبْدُوا ذَاتَ أنفسكم   لا يستَوِي الصِّدْقُ عندَ اللهِ والْكَذِبُ(٥٩)

ولا يخفى ما في هذه الأبيات من استفادة من القرآن الكريم، وخاصة من حيث التأكيد على عدم التسوية بين الأشياء المتناقضة من طاعة وعصيان، وهدى وضلالة وصدق وكذب ونحو ذلك(٦٠).

ولقد استفاد حسان أيضاً من القرآن الكريم في إغناء صوره الشعرية، كتوظيفه لقصة ثمود، وكيف عقروا الناقَةَ التي كانت معجزة نبيهم، فكان ذلك سبب هلاكهم؛ يقول:

يـقول إذا بثَّ الهجـاء لـقومِـهِ   ولاَحَ شهابٌ من سَنَا الحرب وَاقِدُ
كـأشْقَى ثمودٍ إذ تـعاطَى لحِينِهِ   عضيـلـة أمِّ الشقْبِ والسقبُ وَارِدُ
فَوَلَّى فـأوْفَى عـاقلاً رأسَ صـخرةٍ   نما فَـرعُـها واشْتَدَّ منْـها القَـواعِدُ
فـقالَ ألا فـاستمعوا في دياركم   فـقد جَاءكم ذكْرٌ لَكُم وَمَواعِدُ
ثَلاثَـة أيـامٍ منَ الـدَهْـرِ لم يَكُنْ   لهنَّ بـتصديق الَّذِي قَالَ رَائِدُ(٦١)

بل إن حسان قد استغل أيضاً دلالة التركيب القرآني وإيحاءته كقوله:

أوردتموهـا حـياض الموت ضـاحيـة   فـالنَّـارُ موعـدُهَا والموت لاَقِيـهَا
أنْتم أحـابـيش جُـمـعتمَ بِلاَ نَسَبٍ   أئمة الْكُـفْـرِ غَـرَّتْكم طَوَاغِيهـا(٦٢)

فقوله: «أئمة الكفر» تعبير قرآني يوحي بما ورد في الآية الكريمة التي تأمر بقتالهم، وذلك في قوله تعالى: «فقاتلوا أئمة الكفر»(٦٣)، كما أن قوله: «النار موعدها» يوحي أيضاً بما ورد في قوله تعالى «بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمَر»(٦٤)، ومن ثم يقترن التعبيران لحشْدِ دَلاَلاَت موحية ومعبّرة بالنسبة للمسلمين، ومهددة موعدة بالنسبة للمشركين.

ويقابل هذا التوظيف الخاص بالمشركين، توظيف آخر خاص بالمسلمين، من ذلك مثلاً توظيفه لمغزى قوله تعالى في وصف المؤمنين الصابرين: «فما ضَعفوا ومَا استكانوا»(٦٥) في أكثر من بيت من قصائِدِه، حتى وإن لم يستعمل نفس الألفاظ، من ذلك قوله:

أعْـطوا نبي الهدَى والـبِرِّ طـاعتهم   فـمَاوَنَا نصرهم عنه وما نزعُوا(٦٦)

وقوله:

وجاهدُوا في سبيل الله واغترفوا   للنائباتِ فمَا خاسُوا ومَا ضَجِرُوا...
فَمَا ونينا وما خِمْنَا ومَا خَبَروا   منَّا عِثاراً وجُل القومِ قد عَثَرُوا(٦٧)

وبصفة عامة فإن رؤية حسان للواقع والكون، من خلال شعره الإسلامي، رؤية إسلامية، تستقي أسسها من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، ويكفيه فخراً أنه جعل من شعره الإسلامي وسيلة دفاع عن الرسول ﷺ وعن المسلمين، واحتسب في ذلك كله الأجر عند الله، وابتغى فضله ورضوانه وجزاءه، فقال في هجاء أبي سفيان:

هَجَوْتَ مُحَمَّداً فأجبت عنه   وعند الله في ذاك الجزاء(٦٨)

ولقد أدرك الرسول ﷺ رغبة حسان فقال له: «جزاؤك عند الله الجنة يا حسان» **فلما قال:**

فإن أبي ووالده وعرضي   لعرض محمد منكم وفاء

قال له السيد الأمين ﷺ: «وقاك الله حرّ النار»، ولقد قال ابن رشيق معلّقاً عَلَى هذا الخبر» «فقضى له بالجنَّة مرتين في ساعة واحدة، وسبب ذلك شعره»(٦٩).

بل إن حسان قد أخضع شعره ذاته للرؤية الإسلامية، فكان بذلك شعره الإسلامي يختلف عن شعره الجاهلي، سواء من حيث المصدر، أو من حيث الأصالة أو من حيث الدور والهدف أو من حيث القيم الفنية والخلقية(٧٠).

وفي ختام هذه الدراسة نشير إلى أنه ليس القصد منها تتبع كل ما وَرَدَ في شعر حسان من تأثر بمبادىء الإسلام وقواعِدِهِ، فلو فعلنا ذلك لطال بنا المقام، ولكن القصد هو توضيح الجانب الإسلامي البارز في شعرِهِ، وخاصة من حيث الرؤية، حتى لا نقول ما قاله بعضهم من ان حسان لم يتأثر بالاسلام إلا في حدود ألفاظ وعبارات محصورة، حاول أن يوظِّفها في شعرِهِ، فضعف بسبب ذلك التأثر.

●●●

الهوامش

---

(١) الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ٤/١٤١ طبعة دار الثقافة، بيروت.

(٢) من ذلك مثلا د. يحيى الجبوري في كتابه (شعر المخضرمين وأثر الاسلام فيه) ص ٦٦ ــ ٧٢ حيث أشار إلى تأثر حسان ببعض الأحاديث النبوية، وإلى النفس الإسلامي الذي يوجد في إحدى قصائده، ود. طاهر درويش في كتابه

(حسان بن ثابت) حيث بيّن في فصل منه: «اثر القرآن في شعر حسان» ص ٤٨٨ ــ ٤٩٤ تأثر حسان بمعاني القرآن الكريم وألفاظه وأساليبه، لكن بيانه ذاك اقتصر على ذكر البيت والآية التي اقتبس منها حسان المعنى أو اللفظة، دون تصنيف هذا التأثر أو بيان رؤية حسان في ذلك.

(٣) سورة القلم، آية ٤ .

(٤) أخرجه الإمام أحمد.

(٥) سورة التوبة، آية ١٢٩ .

(٦) ديوان حسان بن ثابت الأنصاري ــ شرح البرقوقي ــ ص ١٤٥ ــ ١٤٦ .

(٧) المصدر السابق ص ١٤١ .

(٨) سورة الأعراف آية ١٨٨. وكذلك قوله تعالى من سورة الأنعام آية ٥٠ «قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب».

(٩) فعل ذلك بنو النضير حينما خرج اليهم رسول الله ﷺ يستعينهم في دية العامريين اللذين قتلهما عمرو بن أمية الضمري، وفي ذلك نزل قوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمت الله عليكم إذ هم قومٌ أن يبسطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم، واتقوا الله، وعلى الله فليتوكل المؤمنون» (سيرة ابن هشام ٢/١٥١ ــ ١٥٢).

(١٠) وفي ذلك نزل قوله تعالى: «ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم، إن الله لا يحب من كان خواناً أثيما» آية ١٠٦ ــ النساء. كما أنزل الله عز وجل فيه أيضا: «ومن يكسب خطيئة أو إثما ثم يرم به بريئا فقد احتمل بهتانا وإثما مبينا» آية ١١١ ــ النساء.

وانظر القصة في الروض الأنف ٢/٢٨ ــ ٢٩ ، المطبعة الجمالية بمصر ١٣٣٢هـ/ ١٩١٤م.

(١١) ديوان حسان: ص ٣٢٤.

(١٢) المصدر السابق : ص ٣٧١ ــ ٣٧٢.

(١٣) المصدر السابق: ص ١٣١ ــ ١٣٢.

(١٤) المصدر السابق: ص ١٣٤.

(١٥) المصدر السابق : ص ١٤٦ وانظر أيضا ص ١٤١.

(١٦) المصدر السابق: ص ٤٣٧.

(١٧) طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي ص ٢١٧.

(١٨) ديوان حسان بن ثابت ص ٢٥٢.

(١٩) المصدر السابق: ص ٣٩٩.

(٢٠) المصدر السابق: ص ٦٥ ــ ٦٦.

(٢١) سورة الأحزاب الآية ٢٥.

(٢٢) سورة الأحزاب، الآية: ٩.

(٢٣) سورة الأحزاب، الآية : ٢٥ .

(٢٤) السيرة النبوية لابن هشام ١/٢٠٤.

(٢٥) ديوان حسان: ص ٧٥.

(٢٦) المصدر السابق ص: ٣١٢ وانظر ص ٣٤٣.

(٢٧) المصدر السابق ص: ٣٣٠

(٢٨) ولقد رد عليه الرسول ﷺ بقوله: «نعم يُميتك الله تعالى ثم يبعثك ثم يحشرك إلى النار». وفيه نزل قوله تعالى من

آخر سورة يس: «أوَلم يرَ الإنسان أنّا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين» إلى آخر السورة. (انظر مختصر تفسير ابن كثير ٣/١٧١).

(٢٩) ديوان حسان ص ٣٩٣.

(٣٠) المصدر السابق ص ٢٤٧.

(٣١) المصدر السابق ص ٢٠٣ — وانظر ص: ٣٤٤.

(٣٢) انظر فضائل الصحابة في صحيح مسلم.

(٣٣) ديوان حسان ص ٢٧٩.

(٣٤) المصدر السابق ص ١٨٩.

(٣٥) سورة النساء ، الآيــة ١٤٨، ولقد ورد في تفسير الآية «هو الرجل يشتمك فتشتمه» انظر مختصر تفسير ابن كثير ١/٤٥٢ .

(٣٦) ديوان حسان، ص٢٦٦.

(٣٧) المصدر السابق ص ٢٧٨.

(٣٨) المصدر السابق ص ٤٤٢، وانظر ص ٣٥٣ — ٣٤١ — ٤٠٨.

(٣٩) المصدر السابق ص ٤٧٩.

(٤٠) المصدر السابق ص ٣٨١.

(٤١) المصدر السابق ص ٤٣٧ — وانظر ص ٤٢٥ — ٤٢٨.

(٤٢) أخرجه الشيخان.

(٤٣) ديوان حسان ص ٣٠١ — وفيهم أصل قريش، والذوائب من فهر: المهاجرون، وإخوتهم: الأنصار.

(٤٤) المصدر السابق ص ٣٤٨.

(٤٥) المصدر السابق ص ٢٥٢.

(٤٦) المصدر السابق ص ٣٨١.

(٤٧) المصدر السابق ص ٣١٢.

(٤٨) سورة فصلت، الآية: ٣٤.

(٤٩) سورة المائدة، الآية: ١٠١.

(٥٠) أخرجه الشيخان.

(٥١) أخرجه البخاري.

(٥٢) ديوان حسان ص: ٣٩٣.

(٥٣) سورة الصف، الآية: ٢.

(٥٤) ديوان حسان، ص ٤٠٩.

(٥٥) المصدر السابق ص ٣٤٣.

(٥٦) المصدر السابق ص ٩٣.

(٥٧) المصدر السابق ص ٣١١.

(٥٨) المصدر السابق ص ١٤١.

(٥٩) المصدر السابق ص ٧٥.

(٦٠) ولقد وردت آيات عديدة في القرآن الكريم، يبدو أن حسان قد استفاد منها في هذه الأبيات، لاسيما من حيث الشكل، ثم من حيث النتيجة الواضحة التي تؤدي إليها الموازنة، ومن هذه الآيات قوله تعالى:
— قل هل يستوي الأعمى والبصير، أم هل تستوي الظلمات والنور (الرعد — الآية ١٦).
— قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون (الزمر الآية ٩).
— لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة (الحشر — الآية ٢٠).

(٦١) ديوان حسان ص ١٧٣، وانظر ص ٣٧٢.

(٦٢) المصدر السابق ص ٤٧٧.

(٦٣) سورة التوبة، الآية ١٢.

(٦٤) سورة القمر: الآية ٤٦.

(٦٥) سورة آل عمران، الآية ١٤٦.

(٦٦) ديوان حسان ص ٣٠٣.

(٦٧) المصدر السابق ص ٢٥٢ — ٢٥٣.

(٦٨) المصدر السابق ص ٦١.

(٦٩) العمدة لابن رشيق القيرواني ١/٥٣.

(٧٠) انظر مقالا لكاتب هذا البحث، بعنوان: «الرؤية الشعرية عند حسان بن ثابت الأنصاري» المنشور بمجلة «الفيصل» عدد (١٢٢).